**OPEN ACCESS**
*MA'ARIF-E-ISLAMI (AIOU)*
*ISSN (Print): 1992-8556*
**mei.aiou.edu.pk**
*iri.aiou.edu.pk*

# فن المديح: نشأته وتطوره في الشعر العربي (القصيدة البردة أنموذجا)

(The Art of Lyrics of The Holy Prophet (PBUH) and its evolution in Arabic Poetry (Ode of Praise as a Sample)

*** الدكتور عبدالمجيد البغدادي**
أستاذ مساعد بقسم اللغة العربية، جامعة العلامة إقبال المفتوحة، إسلام آباد
**** الدكتور غلام أحمد**
أستاذ مساعد بقسم اللغة العربية، جامعة الكلية الحكومية، فيصل آباد

## Abstract

Since the dawn of Islamic history, man has experienced social differences between him and his fellow human beings. He experienced different talents and values of people. He saw rise and fall of different leaders. He resorted to different tactics in order to engage the favors of people in power. With the art of his words, both written and spoken, he endeavored to validate and justify the policies and legitimize the leadership of those in power. For this to achieve, he chose to admire courage, generosity, wisdom, understanding and intelligence of the leaders. The Arabs in the pre-Islamic era had relied upon generosity, courage, dream, loyalty and protection of the neighbor etc for their poetry. The Sayyid (Leader) had not been a topic which might have caught the imagination of some prominent poets.

The poetry of the Pre-Islamic era revolved around admiring the superior men, ministers, dignitaries, and rich in terms of creation, vision, courage, generosity and praising the high ideals they saw. This emanated from the poets which were considered ignorant after the dawn of Islam.The most important poets, who were famous for this in the pre-Islamic era, were the Nabgha and Zahir ibn Abi Salma, and in Islamic era Al-Boseeri was well known in this regard.

**Keywords**: Islamic history, leadership, Nabgha, Zahir ibn Abi Salma, Al-Boseeri, pre-Islamic era, Poetry.

## مفهوم المدح

مدحه كـ منعه، يمدحه مدحا ومدحة بالكسر، هذا قول بعضهم، والصحيح أن المدح مصدر، والمدحة إسم، والجمع مدح، أحسن الثناء عليه، ونقيضه الهجاء.

قال علماء الاشتقاق وفقهاء اللغة: المدح بمعنى الوصف الجميل، ويقابله الذم---، وفي المصباح مدحته مدحا كـ "نفع" أثنيت عليه بما فيه من الصفات الجميلة، خلقية كانت أو اختيارية---، نقله شيخنا "المديح والمدحة" بالكسر والأمدوحة بالضم، مايمدح به من الشعر، جمع "مديح" مدائح و جمع أمدوحة، أماديح[1].

منذ فجر التاريخ أحسّ الانسان بالفوارق الاجتماعية بينه وبين أخيه الإنسان، و شعر باختلاف المواهب والقيم عند الناس، ورأى الأقدار تضع و ترفع، و تعطى و تمنع، لذلك سعى إلى رضا من هم فوقه، و تجعل خيالهم بالقول، فوقف، منهم موقف الاحترام والتردد، فكانت أقواله تعبرّ عن المديح، سواء أكان هذا المديح صادرا عن قرارة نفسه أم من أطراف لسانه، فهو يقرّ

بالرياسة والزعامة، لمن يتصور أنهم سبقوه بالغنى والشجاعة والكرم والقوة والفهم والذكاء، فهو يشترك مع الناس جميعا في النظر إلى الزعيم والقائد والوجيه والعالم والغني والسيد والأمير نظرة خاصة، ويشترك معهم كذلك في مديح هؤلاء حين يعري له القول أو يتعدّى الحديث والبيان شعرا و نثرا.[٢] فكذلك تعوّد العرب منذ العصر الجاهلي ان ينوّهو في أشعارهم بأشرافهم من الكرم والشجاعة والحلم والوفاء وحماية الجار، وكان لا يعدّ السيد فيهم كاملا الّا اذا تغنّى بنباهته ومناقبه.[٣] والمديح باعتباره غرضا من أغراض الشعر، شاع في نتاج كثير من الشعراء العرب، منذ العصر الجاهلي، حينما أعجب شعراء الجاهلية بالرجال المتفوقين من الملوك والوزراء والوجهاء والأغنياء من حيث الخلق والرأى والشجاعة والكرم والجود، فحرّكوا ألسنتم بالثناء والإعجاب، امتدحوا المثل العليا التي رأوها عندهم.

وقد يكون نظر هؤلا، الشعراء إليهم نظرة الغريق إلى المنقذ، والفقير إلى الغنى، والمحتاج إلى المتفضّل، وكانوا يمتدحونهم. فأهمّ الشعراء، الذي اشتهروا بهذا الغرض في العصر الجاهلي، النابغة الذبياني وزهير بن أبي سلمى.

والنابغة الذبياني، لما أراد أن يصف جود النعمان فامتحده بأنه أشدّ من سيل الفرات، وقال:

فـمـا الـفُـراتُ إذا هَـبّ الـرّيـاحُ لـهُ
تَـرمـي أواذيّـهُ الـعـبْـرَيـنِ بـالـزّبَـدِ
يَـمُـدّهُ كـلّ وادٍ مُـتْـرَعٍ لَـجِـبٍ
فـيـهِ ركـامٌ مـن الـيَـنْـبوتِ والـخَـضَـدِ
يـظَـلّ مِـن خَـوفِـهِ الـمـلاّحُ مُعتَصِمًا
بـالـخَـيْـزرانَـةِ بَـعـدَ الأيْـنِ والنّـجَـدِ
يـومًـا بِـأجْـوَدَ مـنـهُ سَـيْـبَ نـافِـلَـةٍ
ولا يَـحُـولُ عَـطـاءُ الـيـومِ دونَ غَـدِ[٤]

هذه الصور التي صنعها النابغة، ليرسم أن كرم النعمان وجوده كنهر الفرات، بل أشدّ وأكثر منه.

وكذالك استعار النابغة صورة أخرى لمديح مليكه، فشبه بالشمس بين الكواكب، لمكانه بين الملوك، وارتفاع قدره على أقدارهم، فقال:

ألم ترَ أنّ اللهَ أعطاكَ سورةً
ترى كلّ مَلْكٍ، دونَها، يتذَبذَبُ
فإنكَ شمسٌ، والملوكُ كواكبٌ
إذا طلعتْ لم يبدُ منهنّ كوكبُ[٥]

هكذا سنّ النابغة للشعراء سنن المديح، حينما يتطلعون إلى الملوك، فأصبح المديح حرفة لاكتساب المال.

قال النقاد: إنه أول الاحتراف في المديح، و رأى بعضهم في شعر المديح لعصره يعير قلمه من يجود عليه أو يحمي حماه أو يظلّه بجناحه، فيرفع من قدره بمديحه، ويصوّره في احترام وحبّ و خوف، ويجعله فوق الناس وأعلى الملوك، فبذلك يختلف عن زملائه الجاهليين كإمرئ القيس---حيث قالوا:

المديح هو حبّ عميق وشعور صادق، واعتراف بالواقع ولم يحترف بالمديح[٦]

وكذلك مدح زهير بن أبى سلمى كلّ من قام بإصلاح ذات البين، أو عمل عملا كريما، كما فعل مع هرم بن سنان والحارث بن عوف، اذ أصلحا بين عبس و ذبيان، ودفعها الديات من مالهما الخاص، وكان مدحه لهما ولغيره يقتصر على ذكر الصفات البدوية من شجاعة و رأى كريم وأصل عريق وتقوى خالصة. وكان زهير مخلصا في هذا المديح، يسعى وراء المعروف والفضل ويشيد بهما، ولكنه يفتتح المديح بالغزل التقليدي ثم ينتقل إلى صفات الممدوح، فيقول في هرم بن سنان والحارث بن عوف:

يَمِيناً لَنِعْمَ السَّيِّدَانِ وُجِدْتُمَا
عَلَى كُلِّ حَالٍ مِنْ سَحِيلٍ وَمُبْرَمِ

تَدَارَكْتُمَا عَبْسًا وَذُبْيَانَ بَعْدَمَا
تَفَانَوْا وَدَقُّوا بَيْنَهُمْ عِطْرَ مَنْشَمِ

وَقَدْ قُلْتُمَا إِنْ نُدْرِكِ السِّلْمَ وَاسِعاً
بِمَالٍ وَمَعْرُوفٍ مِنَ القَوْلِ نَسْلَمِ

فَأَصْبَحَ يَجْرِي فِيهِمُ مِنْ تِلَادِكُمْ
مَغَانِمُ شَتَّى مِنْ إِفَالٍ مُزَنَّمِ[٧]

ومن المعروف أن العرب كانوا يعيشون فى أطراف الأرض على نظام عجيب، وأسلوب غريب، لا تجمعهم دولة، ولا يلمهم سلطان، ولا ينظمهم قانون واحد--- كأنها تنتظر زعيما يجمع شملها، وقائدا يفيد من شجاعتها، وإماما يوحّد بين آرائها.

فلما ظهر محمدصلى الله عليه وسلم في قريش، و دعا إلى وحدة العرب واتحادهم، واجتماعهم، تحت دين واحد ورايةواحدة، لينقذهم من فوضى وحروب تستنفر قواهم.

فهزّت دعوته القبائل و رؤساؤها، وبلغت الممالك المجاورة وملوكها، فوقفت بين مصدقة ومكذبة، حتى اذا بلغها ما كان عليه هذا الرسول صلى الله عليه وسلم من تعلق بالحق والوفاء والقناعة والتواضع، ومن مقدرة في البلاغة الفصاحة والبيان والسياسة، ومن مكانة في الشجاعة وقيادة الجيوش هالها أمره، وأدخلها خطره، فانصرف بعضهم إليه، و بعضهم عنه، فوقف له شعراء يتصدون للهجاء عليه، كما وقف معه آخرون يجدّون في الدفاع عنه وامتداحه.

وقد كان هذا المديح أول الأمر يقتصر على امتداح خصاله وشمائله ورسالته وهو حيّ.

فلما قضى انصرف الشعراء إلى الثناء عليه وتعداد صفاته والإشارة بالإسلام، ونحن إنما نعد هذا من المديح، لأنه يتوجه بكلامه إلى النبي صلى الله عليه وسلم كأنه موجود حيّ، يناديه ويناجيه، فيسمعه ويلبيه.[٨]

فحصيلة الكلام السالف، أن المدح هو بيان الشمائل الطيبة والصفات الجميلة التى يكون الممدوح متصفا به، سواء كان يصدر عن قرارة نفسه، أو من أطراف لسانه. ودوافعه التقدير لشخصية الممدوح، أو الاعجاب بفضائله وشمائلة وخصاله، أو الطموح الى نيل عطائه. والمدائح النبوية من فنون الشعر، وهى لون من التعبير عن العواطف الدينية، وباب من الأدب الرفيع، لأنها لا تصدر إلّا عن قلوب مفعمة بالصدق والخلاص..... ولا يراد بالمدائح النبوية إلّا التقرب إلى الله، لنشر محاسن الدين، والثناء على شمائل الرسول--- كما قال الأعشى:

متى ماتناخي عند باب ابن هاشم

تريحي وتلقي من فواضله يدا

نبي يرى ما لا ترون وذكره

أغار لعمري في البلاد وأنجدا

له صدقات ما تغب ونائل

وليس عطاء اليوم مانعه غدا[9]

ولكن هذا ليس من المدائح النبوية، لأن الأعشى لم يقل هذه الأشعار في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم وانما كانت محاولة أراد بها التقريب إلى نبى الإسلام صلى الله عليه وسلم وآية دلت أنه انصرف حين صرفته قريش، ولو كان صادقا ما تحول.

فقد حدثوا أن قريشا رصدوه على طريقه حين بلغهم خبره وسألوه، أين تريد؟ فأخبرهم أنه يريد محمداً ليسلم، فأفهموه أنه ينهى عن الزنا والقمار والربا والخمر، فقال: لقد تركنى الزنا وما تركت، وأبدى زهادته في القمار، رجاء أن يصيب من النبى صلى الله عليه وسلم عونا منه وقال عن الربا: ما دنت ولا أدنت، وأبدى جزعه عند ذكر الخمر وقال اوه، أرجع الى صبابة قد بقيت لى فى المهراس فأشربها.

فقال له سفيان: هل لك فى خير مما هممت به؟ قال: وما هو؟ قال: نحن الآن فى هدنة، فتأخذ مائة من الأبل وترجع إلى بلدك سنتك هذه، وتنظر ما يصير إليه أمرنا، فإن ظهرنا عليه، كنت قد أخذت خلفا، وان ظهر علينا أتيته، فقال: ما أكره ذلك- فجمع له أبو سفيان من قريش مائة ناقة، فأخذها وانطلق الى بلده، فلما كان بقاع منفوحة، رمى به بعير فقتله.[10]

وهذه القصة تدلّ على أن مدحه للرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن الّا محاولة كسائر محاولات الشعراء الذين يكتسبون بالمدائح[11] وكذلك أكثر المدائح النبوية قيل بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وما يقال بعد الوفاة يسمّى رثاء.[12]

وللمدح أنواع كثيرة، منها مدح الأنبياء والملوك والعظماء وأصحاب الجاه والمكانة والوزراء، وقواد الحرب ورجال السياسة، والكرما، والعلماء.

فمدح الانبياء و خاصة مدح النبى صلى الله عليه وسلم أن الدافع له هو الحب الصادق، فهو لا يصدر إلا عن قلوب مفعمة بالصدق والخلوص، ولا يراد به إلّا التقرب إلى الله عز وجلّ- والمدح بألوانه الأخرى، لا يكون كذلك، بل يكون لغرض اكتساب المال وغيره، فهو يصدر من أطراف اللسان-

وما قيل قبل الوفاة يسمّى مدحا، وما قيل بعدها يسمّى رثاء. ولكن، بالنسبة إلى المدائح النبوية فالأمر ليس كذلك، لأنّ النبى صلى الله عليه وسلم، كالأحياء، سواء كان قبل الوفاة أو بعدها، يسمى مدحا في كلتا الصورتين. والشعراء الذين قد اشتهروا بالمديح النبوي في تاريخ الشعر العربي قبل القرنين الثاني عشر والثالث عشر، فأشهرهم البوصيرى[13] الذي نظم قصائد المديح للنبي صلى الله عليه وسلم.

فإذا ألقينا نظرة تاريخية على المدائح النبوية عند البوصيري، وجدنا تنقسم إلى قسمين:

١- قسم نظمه قبل أداء فريضة الحج.

٢- قسم بعد أداء الفريضة.

والقصائد التي نظمها قبل الحجّ، منها قصيدة دالية في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم سماها "تقديس الحرم من تدنيس الضرم" واعتذر فيها عن النار التي ظهرت في أرض الحجاز، وردّ على اليهود والنصارىٰ، حتى قال في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم:

عَلِيمٌ كريمُ الخيم ما فوق عِلْمِهِ
وَلا مجدِهِ عِلْمٌ يُرَامُ وَلا مجدُ
نبيٌّ هُدىً أَهْدَى به اللهُ رَحمةً
لنا لم يَنَلْهَا السَّعْيُ منّا وَلا الْكَدُّ
وبَصرَهُ حتى رأى كلّ غائبٍ
وصار سواءً عندهُ القُرْبُ وَالبُعْدُ
وحتى رأَى ما خَلْفَهُ وَهو مُقْبِلٌ
بِقَلْبٍ تساوَى عندهُ النَّومُ والسُّهْدُ

وهكذا، ختم القصيدة، بإظهار شوقه الى زيارة الرسول صلى الله عليه وسلم وقال:

فَهَبْ لِي رسولَ اللهِ قُرْبَ مَوَدَّةٍ
تَقَرُّ بِهِ عَيْنٌ وتَرْوَى بِهِ كبدُ
وإنى لأَرْجو أنْ يُقَرّبَنى إلَى
جَنَابِكَ إرْقالُ الرَّكائِبِ والوخْدُ[١٤]

وتبدء قصيدته الحاشية، كالآتى:

أمدائح لي فيكَ أم تسبيحُ
لولاكَ ما غفرَ الذنوبَ مديحُ
حُدِّثْتُ أنَّ مَدَائِحي في المصطفَى
كَفّارةٌ لِي وَالحديثُ صَحِيحُ[١٥].

هذه هى المدائح النبوية التى نظمها الشاعر قبل أن يذهب لأداء الحج فلما صحت عزيمته على السفر وامتطى بعيره متجها إلى الحجاز مع الركب، نظم قصيدة عبر فيها عما يشعر به من الفرح العظيم ومطلعها:

سارَتِ العِيسَ يُرَجّعْنَ الحنِينا
وَيجاذِبْنَ مِنَ الشَّوْقِ البرِينا[١٦]

وأخيرا، وصل الشاعر الى المدينة المنورة، فوقف أمام الضريح النبوى، أنشد قصيدة، مطلعها:

وَافاكَ بالذنب العظيم المذْنِبُ
خَجِلاً يُعَنِّفُ نفسَهُ ويُؤَنِّبُ[١٧]

فلما فرغ من أداء فريضة الحج، نظم قصيدة مطلعها:

أزمَعوا البَيْنَ وَشَدُّوا الرّكابا
فاطلب الصبرَ وخَلّ العِتابا[١٨]

ولما عاد الشاعر من الديار الحجازية واستقر في القاهرة شَرع في نظم قصيدة طويلة سماها أم القرىٰ في مدح خير الورى، وهي المعروفة بالهمزية، مطلعها:

كيف ترقى رقيك الأنبياء

يا سماء ما طاولتها سماء[19]

وأهم قصيدة في هذا الباب للبوصيري، هي البردة، التي مطلعها:

أمن تذكر جيران بذي سلم
مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم

**الخلاصة**

نسجت القصائد على منوال البردة ،منها: الكواكب الدرية في مدح خير البرية: للشيخ شمس الدين محمد بن خليل المقري الحلبي، المعروف بابن القباقبي (المتوفى سنة٨٤٩. وخمسها أيضاً،سليمان بن على القرامانى (المتوفى سنة ٩٢٤)، وعارضها أيضًا وخمسها محمد نبادكانى بن ما فى (٩٠٠هـ)، وأبو الفضل أحمد بن أبى بكر المرعش (المتوفى سنة ٨٧٢هـ)،وعبد الله بن محمود، المعروف بكجوك محمود زاده(١٠٤٢)،وأسدابن سعيدين المفتى (١٠٣٤هـ)۔

وأيضا، شرحت البردة في كثير من اللغات، مثل العربية، والفارسية، والأردية والتركية وغيرها من اللغات[20] واستمرّ المديح النبوى بابا من أبواب الشعر العربى حتى العصر الحديث.

## الهوامش

١ - الزبيدى، تاج العروس : ٢٢١/٢.
٢ - فنون الادب العربى٤، المديح ص ٧.
٣ - شوقى ضيف، العصر الاسلامى، ص ٢١٥.
٤ - المديح من فنون الأدب العربى.
٥ - المرجع السابق :١٦ .
٦ - المديح من فنون الأدب العربى ١٢.
٧ - الزيات، تاريخ الأدب العربى ٥٤.
٨ - سامى الدهان، فنون الأدب العربى ٤- المديح ٧١-٧٢.
٩ - ديوان الأعش،٤٦، المؤسسة العربية، لطباعه والنشر، بيروت.
١٠ - إبراهيم شمس الدين ، قصص العرب ،الجزء الثاني،ص:٣٧٠،داركتب العربية ،بيروت ،لبنان.
١١ - زكى مبارك، المدئح النبوية ١٤، ٢ ١٧-١٨.
١٢ - المصدرالسابق ، ١٤.
١٣ - هو محمد بن سعيد بن حماد بن محسن--- البوصيرى (٦٠٨-٦٩٦).
١٤ - ديوان البوصيري، تحقيق محمد سيد كيلانى، ٦٣-٦٩.
١٥- المرجع السابق
١٦ - المرجع السابق ٢٠٩.
١٧ - ديوان بوصيرى: ٤١
١٨ - المرجع السابق : ٢٩.
١٩ - المرجع السابق : ١.
٢٠ - حاجى خليفه، كشف الظنون، عن اسامى الكتب والفنون: ١٣٣٣/٢- منشورات مكتبة المثنى،بيروت.